

تعييب الذنوب، وأي حُرٍّ من الفتيان، ليس له ذنوب
فهذا العيش لا خيم البوادي، وهذا العيش لا اللبن الحليب
فأين البدو من إيوان كسرى، وأين من الميادين الرزوب؟

فوضى الفراغ: مصر في مرمى التهديدات



على مدى سبعة عقود، تعلم الشرق الأوسط أن يقرأ خرائط حروبه بلغة واضحة؛ هذا معسكرنا، ذلك معسكرهم، هذا محور الحق، ذلك محور الباطل، وكانت الثنائية وحدها كفيلا بمنح المنطقة حداً أدنى من الاستقرار (استقرار توازني بارد)، لا يرتقى إلى السلام، لكنه يمنع السقوط في الهاوية، وكان العدو المشترك، مهما بلغت ضاروته، يؤدي وظيفة غير معلنة؛ حيث يجمع الأصدقاء المتنافرين تحت مظلة واحدة، ويؤجل صراعاتهم الجانبية إلى أجل غير مسمى، وكان كل جانب يعرف من يواجهه، ومن يحتمى به، وأين تقف الخطوط الحمراء.

تشريح معمق للحظة غامضة تعيشها المنطقة اعتماداً على أحدث تقديرات مراكز الدراسات الدولية والاستخباراتية

عاصفة قادمة من كل الاتجاهات وتهديدات أربعة جميعها اختارت مساراً واحداً؛ "قلب القاهرة" من الخليج إلى الساحل الإفريقي



رهابية الانتظار، ولا ترف الحياض السليبي، ولا خيار الانحياز الكامل، والمطلوب منها اليوم هو ابتكار معادلة جديدة للوجود في خليج لم يعد كما كان؛ خليج يتحول تدريجياً من ساحة تحالف إلى ساحة تنافس، ومن قضاء تنسيق إلى مسرح صراع بالوكالة.

لذلك، تقف مصر اليوم أمام ضرورة تبنى استراتيجية واضحة تقوم على ثلاثة أسس:

أولاً: سياسة "التوازن الإيجابي" لا "الحياض السليبي"، وعلى القاهرة أن تتعامل مع كل دولة خليجية على حدة، بوصفها طرفاً مستقلاً له مصالحه وحساباته، لا بوصفها جزءاً من كتلة موحدة، وهذا يعني تطوير علاقات ثنائية مع الرياض وأبوظبي - والدوحة أيضاً - تقوم على مصالح محددة بوضوح، وشروط معلنة، وآليات تنفيذ لا تترك مجالاً للمناورات الضيقة، وعلاقات لا تلتقي التحالف القائم، لكنها تحسن مصر من تقلباته.

ثانياً: تحسين الجبهة الداخلية من تداعيات الصراع الخليجي، فعلى الدولة المصرية أن تعلن - بصوت مسموع لا ليس فيه - أن أراضيها ومياهها وخطوطها الجوية خط أحمر، لا يمكن أن تتحول منصة لتصفية حسابات إقليمية، وأي محاولة لاستخدام النفوذ المصري كورقة في الصراعات الخليجية - الخليجية، أو لجر القاهرة إلى مستنقع التنافس المحموم، ستقابل برهض حازم لا يعرف الزيادة، وهذه ليست دعوة للانزلاق، بل لترسيخ قاعدة أن مصر شريك لا تابع، وحليف لا أداة.

ثالثاً: استباق الأزمات عبر بناء آليات إقليمية بديلة، فبدلاً من انتظار ما تسفر عنه صراعات الآخرين، على مصر أن تتحرك نحو إنشاء أطر تنسيقية جديدة تضمن مصالحها وتحمي استقرار المنطقة، فمبادرة مصر - أردنية - خليجية لإدارة الأزمات في سوريا واليمن والسودان، ليست رهابية دبلوماسية، بل ضرورة استراتيجية، وهذه الآلية، إن نجحت في خلق قواعد اشتراك جديدة، قد تكون البديل العملي عن منطق التنافس الأحادي الذي أكلت المنطقة ثماره المرة لمقود.

وهذا هو التحدي الأول، وهذه هي معالم الطريق في مواجهته، ولكن التهديدات لا تتوقف عند حدود الخليج، بل تمتد إلى ما هو أخطر وأكثر غموضاً: فوضى نووية تحت انقراض إيران، وأزمة مياه تعيد تعريف الوجود، وانهايار الساحل الإفريقي الذي يقترب من الحدود المصرية ببطء منهجي، وكل هذه الملفات ستكون موضوع الأجزاء التالية من هذا المقال، لأن الفهم الحقيقي لعام ٢٠٢٦ لا يكتمل إلا برؤية شاملة، تدرك أن التهديدات الأربعة ليست منفصلة، بل حلقات في سلسلة واحدة، وكلها تستهدف قلباً واحداً: مصر.

بقلم: أحمد حمدي درويش



مصر تجد نفسها فجأة في موقع المستهدف.. ليس لأنها طرف في الصراع، بل لأنها حجر الرحي الذي لا يمكن الاستغناء عنه



انهايار التماسك الخليجي وحليفان رئيسيان يشكلان معا ركيزة استقرار المنطقة يتصادمان وجها لوجه فوق أرض يمنية

المحور، وبنت على مدى عقد كامل تحالفاً استراتيجياً مع قطبي الخليج معاً، تجد نفسها اليوم في موقع لا تحسد عليه، ليست طرفاً في الصراع، لكنها في مرمى، وليست خصماً لأحد،

الانتقال نحو حضرموت والمهرة تجاوزاً لكل الخطوط الحمراء، أصدرت بيانات لم تعهد لها بهذه الحدة: اتهمت أبوظبي صراحة بالضغط على الجماعات الانفصالية لشن هجمات تهدد الأمن الوطني السعودي، وطالبها بسحب قواتها خلال ٢٤ ساعة، والمقابل الإمارات لم يكن أقل صدمة، عبرت الخارجية عن "أسفها العميق" ودهشتها من ضربة استهدفت قواتها، ونفت أن تكون الشحنة تحمل أسلحة، مؤكدة أنها كانت إمدادات لوجستية لجنودها، واتهمت الرياض باتخاذ قرار أحادي دون تنسيق.

لكن اليمن، كما يدرك الجميع، لم يكن سوى المسرح، فالجنود تمتد أعمق بكثير من صراع على وكيل محلي في عدن أو سيئون، فما حدث في المكالم لم يكن بداية القطيعة، بل كان لحظة انفجار حقيقي لصهارة تراكمت على مدى سنوات تحت قشرة التحالف الهشة، فمُنذ عام ٢٠١٩ على الأقل، والرويات تتباعدان بصمت: السعودية، المتشغلة برؤية ٢٠٣٠، تريد استقراراً يمكنها من جذب الاستثمارات وتويع الاقتصاد وإقناع العالم بأنها وجهة آمنة، والإمارات التي سبقت الرياض إلى هذا السباق بعمق، تمارس نموذجاً مختلفاً من النفوذ: استثمار في الموانئ، تحالفات مع قوى محلية غير حكومية، ذراع عسكرية طويلة تمتد من سقطرى (أرخبيل يمني) إلى بربرة (عاصمة منطقة الساحل في صوماليالاند)، ومن إقليم تيغراي (في شمال إثيوبيا) إلى ضفاف النيل، والرياض ترى في هذا النموذج ليس فقط منافسة مشروعة، بل تهديداً وجودياً متكاملًا. لقد وصل الأمر إلى درجة باتت معها الرياض تصف سياسة أبوظبي الخارجية - علناً - بأنها "استثمار في الفوضى"، واتهمتها وسائل إعلام سعودية بأنها تحولت إلى أداة إسرائيلية في المنطقة، وفي المقابل، يرد الإماراتيون بتهمة ظاهري، لكن مراكز أبحاثهم وتصريحات مسؤوليهم الكبار تشي بمرارة عميقة: العلاقات في الرأى أمر طبيعي، لكن غير الطبيعي هو الخبث في الخلاف هكذا قال أنور قرقاش، المستشار الدبلوماسي لرئيس دولة الإمارات، واصفاً الحملة الإعلامية التي تعرض لها بلاده بأنها "غير مسبوقة"، فالإمارات التي ساعدت محمد بن سلمان في صعوده وقدمت له الغطاء الدولي في لحظاته الأصعب، تجد نفسها اليوم متهمّة بالتآمر على مشروع ولي العهد السعودي الأكبر.

لكن المسألة الحقيقية لا تكمن في تبادل الاتهامات، بل فيما تخلفه هذه الفجوة من فراغ استراتيجي هائل، فاليمين الذي كان يفترض أن يكون ساحة انتصار موحد على الحوثي، تحول إلى مقبرة للتحالف، والمفارقة المرعبة، التي لا يتوقف محللون كبار عن ترديدتها، أن الحوثيين اليوم أقوى مما كانوا عليه قبل سنوات، ليس لأن إيران ضخمت استثماراتها الإضافية فيهم، بل لأن أعداءهم - وهم يفترض أنهم حلفاء - انشغلوا بتفكيك بعضهم البعض، وكل خلاف سعودي إماراتي على ميناء أو وكيل أو منطقة نفوذ يخلق مساحة عملياتية إضافية لطهران، تملؤها فوراً بصواريخها وطائراتها المسيرة.

والأكثر إزعاجاً أن هذه الفجوة لم تعد محصورة في اليمن، فهي تمتد اليوم مثل شقوق زلزال صامت إلى كل نقطة ساخنة في المنطقة والعالم: في السودان، تدعم الرياض الجيش، وأبوظبي تسلم الدعم السريع وتوفر سبل تدريبه، وفي الصومال، تسلم الإمارات فيضيوها مع أرض الصومال الانفصالية، بينما تدعم الرياض الحكومة المركزية، وفي سوريا، تتخوف الإمارات من الرئيس الجديد ذي الخلفية الإسلامية، فتضغط وتتلصق في التمويل، بينما تزامن السعودية على استقراره وتضع ملياراتها في إعادة الإعمار، وحتى في شرق المتوسط، الإمارات طمعت مع إسرائيل منذ سنوات، بينما تصر الرياض على أن قيام دولة فلسطينية هو شرط لا يمكن تجاوزه.

والرياض، التي باتت ترى في أبوظبي تهديداً للأمن القومي لا مجرد منافس، تحاول اليوم بناء تحالف مواز مع أنقرة وإسلام آباد لمواجهة النفوذ الإماراتي المتصخم، وأبوظبي التي شعرت بأنها مستهدفة، ترد بسرعة البرق: محمد بن زايد يزور نيودلهي، ويبحث عن تحالف دفاعي مع الهند - العدو للدرد لباكستان - فيما يشبه لعبة الشطرنج الجيوبوليتيكية الأكثر خطورة في تاريخ الخليج.

وفي قلب هذه العاصفة تقف مصر، فالقاهرة التي بنت على مدى عقد كامل تحالفاً استراتيجياً مع محور سعودي إماراتي موحد، تجد نفسها فجأة في موقع المستهدف غير المباشر، ليس لأنها طرف في الصراع، بل لأنها حجر الرحي الذي لا يستطيع أي من القطبين الاستغناء عنه، ولا يقدر أي منهما على هضمه كلياً، فأبوظبي تملك ذراعاً مالياً طويلاً في القاهرة، استثماراتها بالمليارات ودعم لا يتقطع، والرياض تملك الثقل السياسي والروحي، وتشارك في مصر ذات الرؤية في رفض التجزئة والحفاظ على الدولة الوطنية، فإن اختار القاهرة بينهما يعني أن تخسر نصف تحالفاتها، وأن تظل على الحياض يعني أن تنفذ النفوذ في سحاحات تتحول يوماً بعد يوم إلى

الليرة الأولى يخشى العدو دون أن يهزم، يتراجع دون أن يستسلم، يغادر المشهد دون أن يخلّف وصية، وما يبدو للوهلة الأولى انتصاراً تاريخياً للحلفاء التقليديين - تراجع الإيراني، انشغال طهران بجروحها الداخلية، تراجع أخلامها في الهزيمة - يتحول ببطء إلى كابوس من نوع آخر، لأن السؤال الذي لا يجزأ أحد على صياغته بوضوح بدأ يفرض نفسه بقسوة: ماذا فعل نحن - الحلفاء - وجها لوجه، بعد أن رحل العدو؟

وفي عام ٢٠٢٦، لم يعد الخطر الأكبر يكمن في القبيلة التي قد تمتلكها إيران، ولا في الصراخ الذي قد يطلقه حزب الله، فالخطر الأكبر هو فراغ غامض، غير مرئي، يتسع بصمت بين أيدي الحلفاء أنفسهم، فراغ لا يعترف به أحد، ولا توجد خريطة لاجتياز، ولا قواعد اشتباك للتعامل مع من كانوا حتى أمس القريب في الخندق نفسه، إنه عصر "ما بعد العدو": لحظة استراتيجية فريدة، لم تختبرها المنطقة بهذا الشكل من قبل، حيث يجد الحليف نفسه فجأة في مرمى حليفه، حيث ترعب الأسلحة في وجه من كان بالأمس شريك السلاح.

هذا المقال ليس محاولة لتأريخ الأحداث، ولا رسماً يومية لما تنقله وكالات الأنباء، بل هو تشريح معمق لهذه اللحظة الغامضة التي تعيشها المنطقة، واعتماداً على أحدث تقديرات مراكز الدراسات الدولية والاستخباراتية الصادرة في يناير ٢٠٢٦، يسمى المقال إلى تفكيك أزمة تهديدات كبرى، لإتزان تعمل تحت سطح التصلبات اليومية، بعيداً عن أضواء الكاميرات وعناوين النشرات الرئيسية، تهديدات لا تعرف بالحدود، ولا تنتظر دورها في قائمة الأولويات الرسمية، لكنها تعيد تشكيل المنطقة من الداخل، بهوءٍ يجيب بالهلع.

ونظراً لطول هذا التشريح وتشعب تفاصيله، فقد تم تقسيمه إلى ثلاثة أجزاء متتابعة، يأخذ كل جزء منها القارئ في رحلة إلى عمق أحد هذه التهديدات: الجزء الأول يتضمن المقدمة العامة للمقال، ويتناول بالتحليل أول هذه التهديدات وأكثرها وضوحاً: انهيار التماسك الخليجي وتحول الحلفاء إلى خصوم، وتداعيات ذلك المباشرة على مصر التي وجدت نفسها فجأة في مرمى صراع لا ناقة لها فيه ولا حمل.

الجزء الثاني ينتقل بالتحليل إلى تهديدات أكثر غموضاً لكنها لا يقلان خطورة: الأول هو الانتشار النووي العابر، أو ما يمكن تسميته بالتسرب النووي تحت انقراض المنشآت الإيرانية المدمرة، والثاني هو أزمة المياه التي تتحول ببطء، من ملف يمني إلى محرك رئيسي للصراعات والانهيارات الوطنية.

الجزء الثالث يكتمل به التشريح ويتناول التهديد الرابع والأقل ظهوراً لكنه الأكثر ترجيحاً للانفجار: انهيار منطقة الساحل الإفريقي وتحولها إلى حاضنة إرهابية جديدة تهدد مصر من الجنوب والغرب معاً، ليختتم بعدها بالتوصيات الاستراتيجية لمصر، والخاتمة التي ترسم ملامح الطريق في عام الفهم الجديد.

وإذا كانت مصر - بقلتها جغرافيتها واهتماماتها الإقليمية - تبدو للوهلة الأولى بعيدة عن بؤر الصدام المباشر، فإن الحقيقة الأكثر إزعاجاً هي أن العاصفة قادمة من كل الاتجاهات، وأن التهديدات الأربعة جميعها، من الخليج إلى الساحل الإفريقي، ومن الفرات إلى النيل، قد اختارت مساراً واحداً: "قلب القاهرة".

أولاً: انهيار التماسك الخليجي منذ تأسيس مجلس التعاون عام ١٩٨١، قامت العقيدة الأمنية الأمريكية - بل والنظام الإقليمي برمتها - على افتراض بدأ وكأنه في بدايات الجيوبوليتيكا، أن السعودية والإمارات، هذان الثقلان المتجاوران، يشكلان معاً الركيزة التي يستند إليها استقرار المنطقة، وكان يفترض بهما، بحكم المصير المشترك والتحالف التاريخي، أن يحافظا على حد أدنى من التنسيق، وأن تظل خلافتهما - مهما بلغت - محصورة في الغرف المغلقة، بعيداً عن أعين الكاميرات وعناوين النشرات الرئيسية.

وهذا الافتراض سقط، ليس بهوءٍ، بل بانفجار عنيف في صبيحة الثلاثين من ديسمبر ٢٠٢٥، ففي ذلك اليوم، لم تكن طائرات التحالف العربي تستهدف الحوثيين في صنعاء، ولم تكن الغارات موجهة إلى معقل إيران في صنعاء، كانت القبائل التي أقيمت على ميناء المكلا - ذلك الشريان العميق المطل على بحر العرب - تستهدف شعرة أسلحة قادمة من الإمارات، موجهة إلى قوات المجلس الانتقالي الجنوبي، الحليف الأقرب لأبوظبي في اليمن، وكانت الطائرات السعودية، والفضائفة سعودية، والأهداف هي ذاتها التي دربت الإمارات عناصرها لحراستها، وللمرة الأولى في تاريخ التدخل الخليجي، اصطدم حليفان رئيسيان وجها لوجه فوق أرض يمنية. ولم يكن ما حدث خلافاً عابراً يمكن اجتواؤه باتصال هاتفي أو زيارة خاطفة، كان زلزالاً أعلن - دون موازية - أن مرحلة "التحالف الموحد" قد انتهت، فالرياض، التي رأت في تمدد المجلس